ميشيل ب. أورين

ستة أيام من الحرب

حزيران ١٩٦٧م وصناعة شرق أوسط جديد

نقله إلى العربية
د. ابراهيم الشهابي



Original Title:

SIX DAYS OF WAR

by:

Michael B. Oren

ISBN 0 - 19 - 515174 - 7

المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص.ب 62807 الرياض 11595
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1426هـ - 2005م

ISBN 2 - 813 - 40 - 9960

ⓒ مكتبة العبيكان، 1426هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أورين، ميشيل

ستة أيام من الحرب/ميشيل أورين؛ إبراهيم الشهابي.- الرياض 1426هـ

636ص؛ 16.5× 24 سم

ردمك: 2- 813 - 40 - 9960

1 - حرب يونيو ١٩٦٧   2 - النزاع العربي الإسرائيلي

أ - الشهابي، إبراهيم (مترجم)   ب - العنوان

ديوي: 956.046   1426 / 4824

رقم الإيداع: 4824 / 1426

ردمك: 2- 813 - 40 - 9960

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى زوجتي سالي،

وأطفالنا

- يواف (YOAV)،
- وليا (LIA)
- ونعوم (NAOM)

ج

﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [العنكبوت: ٤٠].

«قبائل تهدر كهدير مياه كثيرة، ولكنه ينتهرها فتهرب بعيداً وتطرد كعاصفة الجبال أمام الريح وكالجل أمام الزوبعة» . [العهد القديم/أشعيا، الإصحاح ١٧، الآية١٣].

الفهرس

الموضوع	الصفحة



كلمة شكر وعرفان

على الرغم من أن اسمي يظهر كمؤلف لهذا الكتاب، وأني أتحمل المسؤولية وحدي عن مضمونه، فإن كتاب «ستة أيام من الحرب» يمثل ما بذله الكثيرون من جهد وما كرّسوه من وقت وقدموه من خبرات لإنجاز هذا العمل.

ولا بد لي من أن أشكر أولاً موظفي الأرشيف ومساعديهم الذين يسروا لي البحث في مكتبات متنوعة في مختلف أنحاء العالم، وهم: ريجينا غرينويل (Regina Groe-weel) في أرشيف ليندن ب. جونسون الرئاسي؛ وباتريك هوسي (Patrick Hussey) في مدينة واشنطن؛ وميشيل هلفاند (Michael Helfand) في أرشيف الأمم المتحدة في نيويورك؛ وأليكسي كورنيلوف (Alexey Kornilov) وما شا ييجوروفا (Masha Yegorova) في موسكو؛ وجيلادليفني (Gilad Livne) وإيلياهو شلومو (Eliahu Shlomo) في أرشيف إسرائيل الوطني؛ وميشيل تزور (Michael Tzur) في أرشيف جيش الدفاع الإسرائيلي، والكولونيل يورام بوسكيلا (Yoram Buskila)، والكابتن ميشال يزرائيلي (Michal Yizraeli) في الجناح التاريخي للقوات الجوية الإسرائيلية.

وتلقيت أثناء تأليفي لهذا الكتاب معلومات قيّمة من زملائي العلماء، وأتقدم بشكري إلى السفير ريتشارد ب. باركر (Richard B. Parker)، عالم مقيم في معهد الشرق الأوسط؛ ويغال كارمون (Yigal Carmon) رئيس مركز الشرق الأوسط للبحوث العسكرية (MEMRI)؛ والدكتور عبد المنعم سعيد علي، مدير مركز الأهرام للدراسات الاستراتيجية والسياسية؛ وزكي شالوم (Zaki Shalom) من جامعة بن غوريون، وإيال سيسر (Eyal Sisser) من مركز دايان التابع لجامعة تل أبيب، ودان شوفتان (Dan Schueftan) وأريه مورغينشترن (Arie Morgenstern) والحبر اسحق ليفشيتز (Rabbi Isaac Lifshitz) وكلهم من مركز سالم (Shalem)، وأتقدم

بالشكر إلى إران ليرمان (Eran Lerman) لقراءته النقدية للنص. ويودي أيضاً أن أعبر عن امتناني لزميلي اللذين أسهمت نصيحتهما ودعمهما في توجيهي عبر تقلبات هذه الموضوع، وهما الأستاذ أفراهام سيلا (Avraham Sela) الأستاذ في الجامعة العبرية، والسيد مور التشولر (Mor Altshueler) من مركز سالم أيضاً.

ومن أجل الحصول على مزيد من المعرفة التي تتعلق، في كتابة وصياغة العبارات والمصادر والتي ينبغي أن أرجع إليها والتشجيع المعنوي، لجأت إلى عدد من الأصدقاء ذوي المعرفة من بينهم يوسي كلين هاليفي (Yossi Klein Halevi) وشارون فريدمان (Sharon Friedman)، وماثيو ميلر (Mathew Miller)، وجوناثان كارب (Janathan Karp)، وجون كريفين (John Krevine)، وجوزيف روذينبرغ (Joseph Rothenberg)، وداني كروسمان (Danny Crossman)، وإيزابيلا جنور (Isabella Ginor)، وكينيث فينشتاين (Kenneth Weinstein)، وصهيون سوليمان (Zion Suliman)، والمحترم آ. جاي كريستول (Hon. A. Jay Gristol) وجوناثان برايس (Jonathan Price)، ونعومي شاكتر - برايس (Naomi Shacter - Price) اللذين ألجأ لهما دائماً. إنني أتقدم لهم جميعاً بالشكر الحار.

وبوركت (هذه هي الصفة المناسبة) بفريق من الباحثين الموهوبين المتلزمين الذين ساعدوني في إنجاز هذا الكتاب الذي لم يكن ليرى النور لولاهم. ولا بد من التعبير عن إعجابي العميق بموشي فوخسمان (Moshe Fuchsman)، ويميما كيترون (Yemima Kitron)، وإيليشيفا ماكليس (Elisheva Machlis) والكساندر بيفزنر (Alexander Pevzner). وأتقدم بالكشر كذلك إلى مُساعدي التحرير الوما هولتر (Aloma Halter) وميشيل روز (Michael Rose)، وإلى الفنان التخطيطي باتشيفاكوهي (Batsheva Cohay). وإنني مدين بصورة خاصة إلى نوا بزموث (Noa Bismoth) الذي لا يمكن الاستغناء عن تكريس وقته للعمل ونشاطه ومهاراته.

ملاحظة حول المصادر وتهجئة بعض الأسماء

استخدمت مصادر عديدة متنوعة في تأليف هذا الكتاب. ويقوم معظم البحث على أوراق دبلوماسية من أرشيف أمريكا الشمالية وبريطانيا وإسرائيل الذي تكشّف عنه النقاب، حسب القانون، بعد ثلاثين سنة. تظل غالبية بورتوكولات اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلي حبيسة الأرشيف، كبقية الوثائق ما خلا النذر اليسير من أوراق جيش الدفاع الإسرائيلي. أما الأرشيف في الوطن العربي فهو مغلق على الباحثين على الرغم من إمكانية الوصول إلى بعض الوثائق عن طريق بعض المراكز الخاصة كدار الخيام في القاهرة على سبيل المثال.

كما أن عدداً كبيراً من الوثائق العربية قد وقعت في أيدي الإسرائيليين أثناء الحرب، ويمكن الاطلاع عليها في مكتبة المخابرات الإسرائيلية. أما الوثائق المكتوبة باللغة الروسية فهي متوافرة، نظرياً، في الأرشيف في موسكو رغم أنها محدودة وصياغتها ضعيفة. والوثائق الفرنسية منذ العام ١٩٦٧ لم يفرج عنها للعامة حتى الآن.

تختصر أسماء الأرشيفات، في حقل الملاحظات، على النحو التالي:

BGA: أرشيف بن غوريون.

FRUS: علاقات الولايات المتحدة الخارجية.

IDF: أرشيف قوات الدفاع الإسرائيلية (جيش الدفاع).

ISA: أرشيف دولة إسرائيل.

LBJ: مكتب ليندن بينس جونسون الرئاسية.

MPA: أرشيف حزب الماباي.

NAC: أرشيف كندا القومي.

PRO: مكتب السجل العام (= FOمكتب الخارجية. = CAB أوراق مجلس الوزراء. = PREM مكتب رئيس الوزراء).

SFM: أرشيف وزارة الخارجية السوفياتية.

UN: أرشيف الأمم المتحدة.

USNA: أرشيف الولايات المتحدة القومي.

YAD: أرشيف ياد تابنكن (Yad Tabenkin).

وتمثل مقابلات التاريخ الشفوي مصدراً هاماً آخر من مصادر هذا الكتاب. أجرى المؤلف غالبية هذه المقابلات، رغم أنه في كثير من الحالات العديدة الحساسة جداً، كان المؤلف يزود بعض الباحثين المساعدين الذين لم يرغبوا في الكشف عن أسمائهم لأسباب أمنية بأسئلة مكتوبة. حاولت مقابلة أكثر عدد ممكن من الشخصيات البارزة في الحرب، ولكن العديد منهم رحلوا إلى العالم الآخر أثناء عملي في هذا الكتاب مثل جدعون رفائيل (Gideon Rafael) والملك حسين، والملك الحسن، وآخرون عزفوا عن إجراء اللقاء مثل آرييل شارون (Ariel Sharon) وياسر عرفات (Yasir Arafat).

تشكل الكلمات والأسماء العربية تحدياً مزعجاً، إذ غالباً ما يكون للأسماء صيغتان: شعبية وأدبية. وللتوضيح اخترت الصيغة الشعبية، مثل شرم الشيخ (Sharm al- Sheikh) بدلاً من شرم الشيخ (Sharm al-Shaykh)، وأبو عجيلة (Abu 'Ageila) بدلاً من (Abu'Ujayla) كذلك اخترت الصيغة الرسمية للأسماء الشخصية، اللهم إلا إذا اعتاد شخص ما أن يكتب اسمه بتهجئة معينة بالإنكليزية، وأضرب أمثلة على ذلك: اسم جمال عبد الناصر (Gamal Abdel Nasser) بدلاً من (Jamal Abd al-Nasir)، وياسر عرفات (Yasser-Arafat) بدلاً من (Yasir 'Ara-fat) ومحمد القوني (Mohammad El Kony) بدلاً من (Muhammad al-Kuni)، واحتفظت بأسماء أمكنة عديدة كما ترد عادة باللغة الإنكليزية مثل القاهرة (Cairo)، والقدس (Jerusalem) ودمشق (Damascus) بدلاً من كتابتها حسب

مقدمة

إن حرب الاستنزاف، وحرب اليوم الكبير* ومذبحة ميونخ، وأيلول الأسود، والحرب اللبنانية، والجدل الدائر حول المستوطنات اليهودية ومستقبل القدس، واتفاقات كامب ديفيد، واتفاقيات أوسلو والانتفاضة كلها من نتائج ستة أيام عصيبة من شهر يونيو من العام ١٩٦٧ في الشرق الأوسط. من النادر في العصر الحديث أن يسفر صراع محلي قصير جداً كهذا عن نتائج كونية مديدة. ونادراً ما استحوذ حدث واحد وما تفرع عنه على انتباه العالم واحتفظ باهتمامه به كهذا الحدث. وبالمعنى الحقيقي لدى رجال الدولة والدبلوماسيين والجنود، فإن هذه الحرب لم تنته بعد. بل إنها في نظر المؤرخين قد بدأت من توّها.

أُلّفت كتبٌ عديدة حول ما يسمى في معظم أنحاء العالم بحرب الأيام الستة، أو كما يفضل العرب تسميتها بحرب يونيو (حزيران) للعام ١٩٦٧. فالأدب واسع لأن الموضوع مثير جداً -كان الحدث فيه خاطفاً كالبرق، وألقى بظلاله على العالم، واتسمت أرض المعركة بالقدسيّة لدى الملايين من الناس. كان هناك وراء آليات المشهد والتحركات التكتيكية الجريئة أبطال وأوغاد. وكان هناك خطر نشوب حرب نووية. وما إن توقف إطلاق النار حتى أخذت التحليلات والأوصاف الأولى تظهر - وفي غالبيتها عن شهود عيان. ولسوف يتبعها مئات أخرى.

أريد لبعض هذه الكتب أن تخاطب الطلبة والدارسين، وأريد لبعضها أن تخاطب الجمهور العام. وكلها كانت مبنية على مصادر متماثلة: على كتب صدرت سابقاً، ومقالات، وصحف، بالإضافة إلى مقابلات متناثرة، أغلبها باللغة الإنكليزية، وركزت

---

* هكذا يسمونها في إسرائيل. وتسمى في سوريا (حرب تشرين) وفي مصر (حرب أكتوبر) وتُسمّى كذلك بـ (حرب رمضان).

أكثرية الكتب على الطور العسكري من الحرب، من ذلك كتاب تريفور ن. دوبيه (TREVOR N. DUPUY) بعنوان «النصر الخادع» وكتاب «السيف السريع» لمؤلفه س. ل. أ. مارشال (MARSHALL. A.L.S) وتعاملت بصورة سطحية فقط مع وجهيها السياسي والاستراتيجي. كما أن المؤلفين كانوا منحازين إما للعرب أو للإسرائيليين. ولم يظهر كتاب يعتمد على جميع المصادر المعلنة والمصنفة في الأرشيفات وبمختلف اللغات: العربية والعبرية والروسية. ولم تظهر دراسة واحدة تفحّصت الجوانب السياسية والعسكرية للحرب بأسلوب يسعى جاهداً كي يكون البحث متوازناً.

بدأ التحول في تسعينيات القرن العشرين عندما أفرج عن الوثائق السرية الدبلوماسية من الأرشيف الأمريكي أولاً، ومن ثم من أرشيف بريطانيا العظمى، وإسرائيل. وأسفر سقوط الاتحاد السوفياتي، وتخفيف القيود على الصحافة في مصر والأردن عن ظهور نصوص هامة ما كان لها أن تظهر قبل ذلك. ورد العديد من هذه المصادر الجديدة في كتابين أكاديميين رائعين هما كتاب: «سياسات سوء الحسابات في الشرق الأوسط» لريتشارد ب. باركر (RICHARD B. PARKER) وكتاب «عملية السلام» لويليام ب قواند (WILLIAM B.QUANDT) إذ قدم هذا الكتابان للقارئ، ولأول مرةٌ، لمحة عن الدبلوماسية المعقدة المحيطة بالحرب، وعن دخائل إدارة المحنة العالمية. كما حقق هذان الكاتبان درجة من الحيادية والتجرد العلمي لم يسبقهما أحد إليه في أية دراسة لحرب العام ١٩٦٧؛ إنه ابتعاد منعش عن الانحيازية السابقة.

وما زلنا نفتقر إلى كتاب شامل عن الحرب، كتاب يعتمد على آلاف الوثائق المفرج عنها منذ ظهور كتابي قواند (QUANDT) وباركر (PARKER)، كتاب يعتمد على الثروة المتوافرة الآن باللغات الأجنبية، وعلى مقابلات في جميع البلدان التي انخرطت في الحرب. ومازلنا بحاجة إلى دراسة متوازنة لوجهي الحرب السياسي والعسكري، وللأدوار العالمية والإقليمية والأبعاد المحلية ذات الصلة بالحرب، كتاب يخاطب الدارسين ولكنه سهل المنال لدى دائرة أوسع من القراء، وهذا هو الكتاب الذي شرعت في تأليفه.

العمل شاق بلا ريب، ليس بسبب سعة البحث فحسب، بل أيضاً للطبيعة الجدلية الراديكالية التي تتسم بها السياسات العربية الإسرائيلية. تغدو الحروب الكبرى في التاريخ حروباً تاريخية كبرى؛ ولا تشذ الحروب الإسرائيلية العربية عن هذه القاعدة. فمنذ عقود والمؤرخون يختصمون في تفسير تلك الحروب، بدءاً من حرب الاستقلال، أو حرب الـ ١٩٤٨ الفلسطينية، حتى أزمة السويس في العام ١٩٥٦. ولقد سعى حديثاً، فوج من المؤرخين التنقيحيين الجدد، على الأغلب في إسرائيل، لتضخيم إثم إسرائيل في تلك الصدامات وإظهاره في الجدل الدائر حول الحدود، وحتى حول شرعية الدولة اليهودية ذاتها. ويزداد الجدل حدة الآن بفضل تركيز المؤرخين على حرب الـ ١٩٦٧ واحتلال مناطق عربية من قبل إسرائيل ومنها الجولان والضفة الغربية اللتان مازالتا ترزحان تحت الاحتلال واللتان ستتأثر حياة الملايين بنتيجة حسم الأمر فيهما.

وكنت أنا كذلك جزءاً من الجدل وكانت لي آرائي. ومع ذلك، لدى كتابة التاريخ، أرى أن هذه المفاهيم المسبقة تشكل عقبة لا بد من اجتيازها بدلاً من أن تكون قناعات تؤكد رأياً أو تغنيه. حتى لو كان من المستحيل تأكيد حقيقة تأكيداً كاملاً، فإن أي جهد يبذل يجب أن يكون في اتجاه البحث عن الحقيقة. وعلى الرغم من أن ثلاثة عقود من الزمن تشكل منظوراً تاريخيا لا يُثَمَّن، فإنه لا ينبغي لوجهات نظر كهذه أن تشوش فهمنا لمظهر العالم في نظر الذين عاصروا تلك الأيام المضطربة. فلنستخدم الفهم المتأخر للوقائع، متذكرين أن قرارات الموت والحياة يصنعها الزعماء في الزمن الواقعي، وليس المؤرخون بالمنظور الارتجاعي.

لا أقصد إثبات عدالة فريق أو آخر في الحرب، ولا تعيين الملوم عن نشوبها. بل أريد ببساطة، أن أبين البيئة التي انطلقت منها الحرب والمحفزات التي سرّعت حدوثها. وبفضل استخدام حرب ١٩٦٩ مثالاً، أتطلع إلى استكشاف طبيعة الأزمات

ما كان لأحد إلا ذي مخيلة رائدة فريدة أن يتصور أن مثل هذا العمل التخريبي الضيق النطاق، حتى ولو نجح، أن يطلق شرارة حرب ينخرط فيها أناس كثيرون ومعدات وأسلحة كثيرة، حرب تغير مسار تاريخ الشرق الأوسط، بل تحدث تغييرات كثيرة في العالم. ومع ذلك كانت عملية فتح هذه تتضمن عدداً من النقاط التي توحي بأن حرباً كهذه سوف تنشب في غضون أقل من ثلاث سنين. كان هناك بالطبع البعد الفلسطيني، الذي يعد مسألة متفجرة معقدة ومصدر قلق وإزعاج للدول العربية وإسرائيل على حد سواء.

كان هناك إرهاب تدعمه سوريا التي تتلقى دعماً بدورها من السوفيات.

وكان هناك ماء، إذ ربما تدور الحرب حول الماء وبسببه أكثر من أي سبب فردي آخر.

ومع ذلك يعد القول إن عملية فتح الأولى هذه أو أية هجمات أخرى لاحقة هي التي فجرت حرب الشرق الأوسط، ساذجاً وقدَرياً.

قال إيان ماك إيوان (Ian McEwan) في روايته «الحب الراسخ»: «البداية، وسيلة بارعة، ولكن الذي يرجح أمراً على سواه هو مقدار فهم ما سيأتي». تطبق هذه الملاحظة على التاريخ أيضاً حيث تكون محاولات التعرف على الأسباب الأساسية عشوائية في أحسن الأحوال، وعبثية في أسوئها. إذ يمكن للمرء أن يبدأ بسهولة بأول مستوطنة صهيونية في فلسطين، أو بالسياسة البريطانية في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى؛ أو بنشوء حركة القومية العربية، أو بالمحرقة (الهولوكوست). الخيارات كثيرة ومتساوية في إمكانية كونها أسباباً أولية.

في حين أنه من العبث محاولة تحديد السبب أو الأسباب التي أدت إلى نشوب حرب الـ ٦٧ في الشرق الأوسط، فإنه يمكن وصف السياق أو المحيط الذي أصبحت فيه الحرب ممكنة الوقوع. ومثل ذلك كمثل الفراشة التي تحدث بخفقان أجنحتها تيارات ربما تولد عاصفة، كذلك ربما تولد أحداث تبدو تافهة شرارة تؤدي إلى جائحة في غير وقتها. وكما تحتاج الفراشة إلى بيئة وقرائن- كالجو الأرضي

والجاذبية وقوانين الديناميكا الحرارية - كي تولد العاصفة، كذلك الأحداث التي سبقت حرب يونيو للعام ١٩٦٧ تتطلب ظروفاً نوعية كي تسرّع نشوب الحرب. كانت بيئة الحرب هي بيئة الشرق الأوسط في فترة ما بعد الاستعمار، منطقة مزّقتها النزاعات المريرة الضروس وتدخلات القوى العظمى والإثارة المستمرة لما أصبح يعرف بالصراع العربي الصهيوني.

ابتداع البيئة

لا بد من نقطة انطلاق، حتى لبحث البيئة، وهو اختيار عشوائي.

فلنبدأ بالصهونية. حركة الشعب اليهودي لبناء كيان سياسي مستقل لهم في وطنهم التاريخي إن إدخال الصهيوينة إلى دوامة سياسات الشرق الأوسط أثار بيئة كانت في الأصل غير مستقرة وأدخلها في إطار حرب إقليمية. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو بسيطاً وسهلاً، فإنه لولا الصهونية لما وجدت إسرائيل، ولولا إسرائيل لما كانت بيئة الصراع الشامل هذه.

إن ما بدأ كمجرد فكرة في منتصف القرن التاسع عشر، وقد حفّزَ في مطلع القرن العشرين آلاف اليهود الأوربيين والشرق أوسطيين على ترك بيوتهم للإقامة في فلسطين البعيدة بصورة لا يمكن تصورها. يكمن سر الصهونية في مزاوجتها بين المفاهيم القومية الحديثة وربط الألفية الصوفية اليهودية بأرض إسرائيل، تلك هي القوة التي حافظت على المجتمع اليهودي في فلسطين خلال ما جرى من سلب في العهد العثماني، وخلال الحرب العالمية الثانية عندما طرد العديد من الزعماء اليهود بوصفهم أعداء وغرباء (ومعظمهم من اليهود الروس)، وبنهاية الحرب حل الإنكليز محل الأتراك في فلسطين، ووعدوا بموجب تصريح بلفور ببناء وطن قومي يهودي في البلاد. تعاظم المجتمع اليهودي في ظل الانتداب البريطاني إذ تدفق إليه اللاجئون اليهود من اللاسامية الأوربية -أولاً من بولندا، ثم من ألمانيا- وأقاموا مؤسسات اجتماعية تربوية في زمن قصير فاق تلك المؤسسات التي أقامتها

بريطانيا. وبحلول أربعينيات القرن العشرين أصبح المجتمع اليهودي (اليشوف) مصدر طاقة دينامية، إبداعيّة، وإيديولوجية، وتعددية سياسية في عملية تشكيل المنطقة. وباتباع النماذج الغربية والأوربية، استطاع يهود فلسطين إيجاد وسائل جديدة للاستيطان الزراعي (المستعمرات الاشتراكية المشاعية kibbutz -كيبوتز- والمستعمرات التعاونية (moshav – موشاف) الذي يعد اقتصاداً اشتراكيا قابلاً للحياة ذا أنظمة للصحة القومية، والتحريج، وتنمية البنية التحتية، والجامعات المحترمة، والأوركسترا السمفونية -والجيش الشعبي السري- الهاغناه (Haganah)(٢) لحماية المستعمرات. وعلى الرغم من أن البريطانيين أخذوا بالتخلي عن دعمهم للوطن القومي اليهودي، فإن ذلك الوطن قد أصبح حقيقة واقعة: دولة بدائية آخذة في التبرعم والازدهار.

وهذا ما نفر منه العرب الفلسطينيون، إذ اعتبر العرب ذوو الجذور العميقة منذ قرون في فلسطين ويشكلون الغالبية العظمى من السكان أن المجتمع اليهودي أداة من أدوات الامبريالية الغربية عن ثقافتهم ومُنافٍ لطريقة حياتهم التقليدية وضارّ بها. وعلى الرغم من أن الإسلام كان دائماً متسامحاً مع اليهود، ولو بوضعية أدنى، فإن تلك الحماية لم تعط اليهود الحق للسيطرة على جزء من قلب الأرض الإسلامية أو لحكم المسلمين.

ولم يكن الفلسطينيون بأقل من نظرائهم المتدينين الخاضعين للحكم الفرنسي في سوريا وشمال إفريقية، أو للحكم البريطاني في العراق ومصر، مطالبة بالاستقلال وسعيا لتحقيقه. فقد تلقوا هم كذلك وعداً من بريطانيا بالاستقلال، وأخذوا يطالبون بتنفيذ هذا الوعد(٣). أما أن يستقلوا تحت السيادة اليهودية، فلم يكن مقبولاً لديهم أبداً، بل كان ذلك في نظرهم شكلاً معيناً من أشكال الاستعمار.

وهكذا كانت كل موجة من المهاجرين اليهود إلى فلسطين -في الأعوام ١٩٢٠-١٦٢١-١٩٢٩ تثير رد فعل عنيف عند العرب بلغ ذروته في الثورة العربية عام ١٩٣٦ ضد اليهود والبريطانيين معاً. استمر العصيان والتمرد ثلاث سنوات وأسفر عن إبعاد الكثير من القيادات الفلسطينية العربية وإضعاف اقتصاد العرب. وبالعكس، تعاظمت قوة المجتمع اليهودي. ومع ذلك، حرم اليهود من النصر. إذ أصدرت

بريطانيا كتاباً أبيض ألغى عمليا وعد بلفور، وذلك تحسباً من قيام المسلمين بحركة عنيفة مفاجئة ضد بريطانيا في جميع أنحاء الإمبراطورية. وبعد ذلك بوقت قصير نشبت الحرب العالمية الثانية وأعلن الزعيم الصهيوني ديفيد بن غوريون عن عزم حركته «محاربة الكتاب الأبيض وكأنه لا توجد حرب عالمية، وأن يخوض الحرب وكأنه لا يوجد كتاب أبيض». وبالمقابل ألقى الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين المعين من قبل البريطانيين والذي ادعى من تلقاء نفسه أنه يمثل العرب الفلسطينيين وضع مصيره في يد هتلر. (٤)

وكان للثورة العربية من العام ١٩٣٦-إلى العام ١٩٣٩ نتيجة مصيرية أكبر. فإذا ما كان الصراع سابقاً بين اليهود والعرب في فلسطين، فإنه اليوم صراع بين الصهيونيين والعرب في كل مكان. لقد أثارت القضية الفلسطينية تعاطفاً كبيراً في جميع أنحاء الوطن العربي حيث كانت تترعرع الروح القومية الجديدة وتزدهر. وادعت القومية العربية التي كانت أيضاً من نتاج الفكر الأوربي الحديث، بوجود شعب عربي واحد تتجاوز هويته الروابط العرقية والدينية والعائلية. دعي ذلك الشعب الآن لكي ينتقم من قرون ثلاثة من الإذلال على يد الغرب، وإزالة الحدود المصطنعة (بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق) التي رسمها الاستعمار.

وعلى الرغم من أن حلم إقامة دولة عربية مستقلة تمتد من جبال طوروس (Taurus Mountains) في الشمال إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن الخليج العربي إلى طرف شبه الجزيرة العربية، سيظل حلماً، إلا أن ظهور عالم عربي تربطه العواطف والثقافة قد أصبح حقيقة واقعية(٥). فمنذ أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كان أيُّ حدث يقع في فلسطين يولد اضطرباً وتمرداً في بغداد والقاهرة وحمص وتونس والدار البيضاء.

ولم يكن يدرك هذا النهج بصورة أفضل أو يخشاه أكثر من زعماء العرب في ذلك الحين. وبسبب الافتقار إلى أيّة شرعية دستورية كانت التشكيلة القيادية: رؤساء وزارات، وملوك، وسلاطين، وأمراء تعارض التعبير الحر وحساسة لتدفق الرأي الجماهيري - أي تحرك «الشارع» العربي. لذلك كانت مهمة القادة العرب أن يدركوا

مسبقا السبيل الذي يسير في الشارع ويناور، كي يكونوا هم في طليعته. كان الشارع مناهضاً بعنف للصهيونية. واستجابة لذلك الغضب العارم، وبسبب التنافس بين القادة العرب الذي قيد حركتهم، زينت الأنظمة العربية نفسها بفلسطين، فلم يعد الصراع محلياً أبداً.

وفي تلك الأثناء، اغتنم البريطانيون بدهاء حياد الصهيونية في أثناء الحرب، لتهدئة العرب واسترضائهم فرعوا إنشاء جامعة عربية يمكن لأعضائها أن يظهروا وحدتهم ويحتفظوا في الوقت نفسه باستقلاليتهم. (٦)

ولكن، عندما تأكد النصر في أوربا عاد الصهاينة للانتقام فأعلن الصهيونيون الحرب على الانتداب، يحفزهم على ذلك استمرار وجود الكتاب الأبيض.

ويلهيهم الهولوكوست الذي لولا الكتاب الأبيض لما ذهب ستة ملايين من اليهود ضحية للهولوكوست. وأول من أعلن الحرب على الانتداب ميليشيات الإرغون (IRGUN) اليمينية برعاية مناحم بيغن (MENACHEM BEGIN)، ثم تبعه التيار العام الهاغناه (HAGANAH).

وبحلول العام ١٩٤٧ كانت بريطانيا المنهكة من الحرب والتي يطاردها رئيس أمريكي هو هاري ترومان (HARRY TRUMAN) الملتزم علناً بالقضية الصهيونية، على استعداد لتسليم القضية الفلسطينية إلى الولايات المتحدة وجاءت المحصلة بصدور القرار ١٨١ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي ينص على تقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة عربية وأخرى يهودية وإقامة نظام دولي للقدس. وافق الصهيونيون على القرار، بينما رفضه العرب الذين كانوا قد رفضوا عرضاً سابقاً أفضل منه قدمته بريطانيا وأصروا على وجوب فرض سيادتهم على كل فلسطين.

في الثلاثين من نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ١٩٤٧، أي في اليوم الثاني لصدور قرار التقسيم، قام الفدائيون الفلسطينيون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في جميع أنحاء فلسطين وقطعوا الطرق الواصلة فيما بينها. أما رد الصهيونيين

وكان هذا الميناء الذي أعيدت تسميته فاصبح يعرف بإيلات (EILAT) شريان الحياة لإسرائيل عبر خليج العقبة ومضائق تيران، وإلى أسواق إفريقية وآسيا.

وخلافاً لما بدى أنه احتمال يقرب من المستحيل، أحرز القادة الشباب مثل إيغال آلون (YIGAL ALLUN) وإسحق رابين (YIZHAK RABIN) نصراً استثنائياً، ولكن بثمن باهظ، إذ قتل ستة آلاف يهودي -أي ١٪ من الشعب- وقصفت قرى عديدة ودمّر معظمها. وعلى الرغم من الهجمات المتكررة التي قامت بها قوات الدفاع الإسرائيلية على مدينة القدس، فإن هذه المدينة ظلت مع الهاشميين بالإضافة إلى ممر اللطرون (LUTRUR) المؤدي إليها. كما اجتث الفيلق العربي مستعمرات كتلة عتسيون (ETZION BLOCK) الواقعة خارج بيت لحم واحتل الضفة الغربية لنهر الأردن. وكانت غالبية سكان إسرائيل ومراكزها الصناعية تقع ضمن مدى مدفعية هذا الجيش العربي أو ذاك. وكان عرض إسرائيل في أضيق نقاطها تسعة كيلو مترات فقط بحيث يسهل شطرها إلى قسمين باندفاع أردني أو عراقي من الشرق ولا مفر لليهود عندئذ سوى البحر.

لقد فاقمت غنائم النصر المختلطة جرح التاريخ اليهودي الكلي. وولدت ازدواجية متناقضة في إسرائيل: ثقة مفرطة بأنها لا تقهر جنبا إلى جنب مع الإحاس المتضخم بمصيرها. فكانت تصور نفسها عند الغرب بأن الإسرائيليين ليسوا سوى نسخ من داوود ضعيف التسلح يقاتلون العمالقة الفلسطينيين؛ وتصور نفسها عند العرب بأنهم غولاثيين (Golathians) يتمتعون بقوة لا يمكن تقديرها. وفي أول زيارة يقوم بها رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان (MOSHE DAYAN) إلى الولايات المتحدة في نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٥٣ قال للمسؤولين في البنتاغون: إن إسرائيل واجهت خطراً مميتاً. ولكنها في الوقت نفسه استطاعت سحق الجيوش العربية مجتمعة في أسابيع. (٨)

لم يصب العرب بوباء هذا التناقض على أية حال. فكانت حرب الـ ٤٨ تعد «نكبة» عندهم لا يمكن تخفيفها أو تلطيفها. إن استعراضات النصر التي كانت تقام

في القاهرة ودمشق لم تستطع إخفاء حقيقة أن العرب قد فشلوا في أول امتحان بعد مرحلة الاستعمار. وكان ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن (جعل الدولة تسقط عبارة «عبر/ شرق» لتصبح المملكة الأردنية الهاشمية) واحتلال مصر لغزة أكد خسارة الفلسطينين للدولة التي كان من المفروض أن تضم هاتين المنطقتين. كما أن هزيمة العرب على يد جيش صغير كان محتقراً في نظرهم، ضاعف من إذلالهم(٩) لم تستطع تلك الهزيمة أن تولد أبطالاً بل ولدت مرارة في نفوس الجنود من أمثال جمال عبد الناصر أحد الضباط الشباب الذين حوصروا في جيب النقب، الذي أخذ يسعى الآن للانتقام ليس من إسرائيل فقط بل من الحكام العرب العاجزين الذين أذلتهم إسرائيل.



السلام المستحيل

كان لاتفاقات الهدنة العامة (GAA) التي وقعتها إسرائيل مع أعدائها المجاورين الأربعة: مصر والأردن ولبنان وسوريا، على التوالي في النصف الأول من العام ١٩٤٩أثر عميق على العلاقات العربية الإسرائيلية خلال السنوات التسع عشرة التالية.

وبموجب النصوص الغامضة لهذه الاتفاقيات، كان أحد الفريقين، وهو الفريق العربي، يدّعي أن له حقاً كاملاً في القتال واستئناف الأنشطة القتالية عندما يرغب، وحرم الطرف الثاني، وهو إسرائيل، من أي شكل من أشكال الشرعية أو الاعتراف به. تُعَدُّ هذه الاتفاقات كوثائق دبلوماسية فريدة من نوعها. ففي حين أريد لها أن تكون أساساً لسلام دائم في فلسطين، حيثما قال رالف بنش (RALPH BUNCHE) وسيط الأمم المتحدة الذي نال جائزة نوبل على جهوده للتوصل إلى هذه الاتفاقات، فإن هذه الهدنة أضفت صفة الديمومة على الصراع وهيأت الأرضية للحرب.

لقد خُدع الاسرائيليون. فبسبب اعتقاد بن غوريون وغيره من القادة الإسرائيلين بأنهم قادرون على الاحتفاظ بالأراضي التي احتلوها فيما وراء حدود التقسيم وإبقاء اللاجئين خارج فلسطين لم تقم القوات الاسرائيلية بإنزال مزيد من العقوبات بالجيوش العربية. إذ كانوا يعتقدون أن تحقيق السّلام ليس إلا مسألة شهور، إن لم تكن أسابيع. ولكن ما إن انسحبت قواتهم حتى أعلنت الحكومات العربية أن الهدنة لم تكن سوى هدنة مؤقتة يستطيع العرب بموجبها مقاطعة البضائع الاسرائيلية، وحرمان إسرائيل من الإبحار عبر مضائق تيران وقناة السويس. وادعوا أنه لا توجد إسرائيل، بل يوجد جيش إسرائيلي، ولا توجد حدود إسرائيلية بل هي خطوط هدنة عشوائية تتخللها مناطق منزوعة السلاح (DZS) مختلف على ملكيتها.

وهكذا فقد هُلّلَ للاتفاقات مبدئيا بوصفها مكسباً، لأنه سرعان ما أصبحت إسرائيل حجر الرحى فيها. فقد حاولت إسرائيل أن تتحدى حصار السويس في مجلس الأمن في العام ١٩٥١ ولكن سرعان ما تجاهلته مصر في حين قامت سوريا في الشمال باحتلال قمم بعض التلال فوق خط الهدنة. وأصبحت لجان الهدنة المشتركة (MACS) التي شكلت لتعالج الشؤون اليومية، ميداناً للاتهامات

والاتهامات المضادة؛ الأمر الذي جعل معظمها يتوقف عن العمل تماماً. كما فشلت الجهود التي بذلتها لجنة التوثيق الفلسطينية التابعة للأمم المتحدة («UN Palestine Conciliation Commission (PCC)») وحكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا في دفع إسرائيل والدول العربية في اتجاه السلام.

ومع ذلك لم يكن جميع القادة العرب ضد السلام، من حيث المبدأ على الأقل، خصوصاً إذا جلب لهم هذا السلام مكاسب إقليمية.

وعلى الرغم من قرعهم طبول الحرب لتهدئة الشارع في بلدانهم، كان بعض القادة يسعون سراً لعقد اتفاقات مع الصهيونيين.

فالدكتاتور السوري حسني الزعيم عرض سراً توطين ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني مقابل سيطرة سورية على نصف بحيرة الجليل (بحيرة طبريا).

أراد ملك الأردن، عبد الله، ممراً بين الضفة الغربية التي ضمها حديثاً والبحر المتوسط، وطالب فاروق، ملك مصر، بكامل صحراء النقب -٦٢٪ من مناطق إسرائيل. عارض بن غوريون، على أية حال، تقديم أية تنازلات ثانية عن الأرض مفضلاً بقاء الحال على ما هو حيث تستطيع إسرائيل تنمية بنيتها التحتية واستيعاب المهاجرين، وتجميع قوتها. بيد أن فشل التوصل إلى سلام لا يعود إلى عناد بن غوريون بقدر ما يعود إلى عجز العرب عن التعامل مع إسرائيل بصورة رسمية عادية. وهكذا أقنع مجلس الوزراء الأردني الملك عبد الله بإيقاف المحادثات مع إسرائيل. وأوضح المبعوثون المصريون أن عقد اتفاق مع الصهيونيين الآن أو حتى في المستقبل المنظور سوف يكلفهم حياتهم بالتأكيد. (١٠)

لقد باءت جهود الحكام العرب لمسايرة الرأي العام بالفشل في النهاية لأنهم أخذوا يتساقطون الواحد تلو الآخر. فحسني الزعيم لم يكن يكمل شهوراً ستة في الحكم قبل أن يطاح به ويُعدم، معطياً نموذجاً لستة عشر نظام ستنشأ وتزول في سوريا خلال سنوات. وتلاه الملك عبد الله الذي أردته رصاصة فلسطينية خارج المسجد الأقصى في القدس في يوليو (تموز) من العام ١٩٥١، أمامَ ناظرَيْ حفيده حسين الذي ورثه في الحكم فيما بعد.

كما مُثِّل بالملك العراقي الهاشمي، فيصل، على يد غوغاء متوحشين في بغداد في العام ١٩٥٨، مع رئيس وزرائه نوري السعيد الذي كان صوته عالياً صاخباً ضد الصهيونيين، ولكنه كان يتصل بهم سراً. (١١)

وجاء دور مصر في يوليو(تموز) من العام ١٩٥٢، إذ أطيح بملكها فاروق على يد عصبة من الضباط الأحرار المزيفين بقيادة الجنرال محمد نجيب.

ثم أطيح بمحمد نجيب نفسه في غضون سنة على يد الرجل الحقيقي القوي الذي كان وراء النظام، البكباشي (كولونيل) الملهم ومدعي الاعتدال جمال عبد الناصر.

اعتقد الاسرائيليون أن بإمكانهم إقامة عمل مع هذا الرجل. انخرط ممثلون مصريون وإسرائيليون مرّة أخرى في اتصالات سرية، حتى إنه قدمت رسالة غير موقعة من جمال عبد الناصر إلى القادة الإسرائيليين.

بيد أن الموقف الأساسي لمصر لم يتغير: لا يمكن التفكير بعقد سلام في الظروف الحالية، ولن يكون السلام ممكنا إلا بتنازل إسرائيل عن صحراء النقب بأكملها. وبحلول العام ١٩٥٣، عندما بدأت مصر ترعى هجمات الفدائيين الفلسطينيين داخل إسرائيل، وتجددت الدعوة إلى «جولة ثانية»، رأى بن غوريون أن الاتصالات لم تكن سوى لعبة ومحاولة لتخدير إسرائيل قبل ذبحها.

حصل في السنة الثالثة، ١٩٥٤، منعطف فاصل في الشرق الأوسط لم يلحظه أحد في أي مكان آخر في العالم، إذ تحول ولاء الاتحاد السوفياتي في تلك السنة إلى الطرف الآخر. كان الاتحاد السوفياتي في الواقع، قبل ذلك التاريخ، يدعم إسرائيل منذ نشأتها واعترف بها وزودها بالسلاح. بيد أنه لم يعد هناك ما يكسبه من الصهيونية -إذ كانت الامبراطورية البريطانية آخذة بالأفول- وأصبحت مكاسبه تكمن في استرضاء الحكومات الجديدة في منطقة الشرق الأوسط التي جاءت للحكم بعد فترة الاستعمار، لتأمين حدوده الجنوبية غير المحصنة، وتهديد موارد النفط الغربية. فصرح السكرتير الأول للحزب الشيوعي، نيكيتا خروتشيف (Nikita

لقد أغضب ذلك عبد الناصر وشعر بالإذلال، فكثف من دعمه للفدائيين الفلسطينيين، ورفض الإفراج عن السفينة الإسرائيلية أو العفو عن المخربين المصريين اليهود الذين أُعدِم منهم اثنان شنقاً في النهاية، أما البقية فحكموا بالسَّجن. كما رفض خطة ألفا على الرغم من مغرياتها الإقليمية «فرد بن غوريون رداً سريعاً وقاسياً: وكانت أكبر عملية انتقامية ضد قوات عربية نظامية منذ عام ١٩٤٨. إنها الإغارة على غزة (هكذا أصبح اسمها) في الثامن والعشرين من فبراير (شباط) ١٩٥٥ التي أسفرت عن مقتل واحد وخمسين جندياً مصرياً وثمانية جنود إسرائليين، وأطلقت العد التنازلي نحو الحرب.

وهكذا أخذ العنف يتصاعد خلال العام ١٩٥٥. إذ استمر ناصر بالاعتداء على إسرائيل بعمليات فدائية، وعلى الصعيد السياسي اتخذ موقفاً ضد السلالات العربية المحافظة الحاكمة -كالهاشميين في الأردن والعراق، والسعوديين- الذين كانوا يعارضون راديكاليته المتشددة. ثم وجه ضربة في سبتمبر (أيلول) إلى إسرائيل والملوك العرب على حد سواء. إذ ابتاع أسلحة سوفياتية من خلال موردين تشيكيين (Czech) فقد اشترى دبابات ومدافع وطائرات نفاثة أكثر من كل أسلحة الشرق الأوسط مجتمعة.

وفي تطور مفاجئ قفز الاتحاد السوفياتي فوق الحزام الشمالي وحط في مفرق الطرق بين آسيا وافريقية، في حين حلّق عبد الناصر إلى وضع لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي الحديث: وأخذ يدعو الشعب العربي مباشرة إلى الوحدة والكرامة برعاية مصر ورعاية عبد الناصر متجاوزاً بذلك الحدود التي صنعها الاستعمار.

كان بن غوريون يراقب صعود ناصر بقلق شديد. فقد تنبأ منذ زمن بعيد بظهور شخص قوي ذي جاذبية لدى الجماهير، أي أتاتورك (Ataturk) آخر يوحد العالم العربي من أجل الحرب. وفجأة تجسد ذلك الكابوس حقيقة واقعة. وقال بن غوريون: أصبحت القضية مسألة وقت قبل أن يستوعب الجيش المصري السلاح الجديد المتدفق بوفرة، ومن ثم لا يعود له عذر في عدم استخدامه. فأثبتت نبوئته صحتها تماماً: إذ

شهدت الشهور الستة التي تلت تلقي الأسلحة السوفياتية قتالاً حدودياً واسع النطاق، وأعمالاً انتقامية، وهجمات فدائيين التي أزهقت أرواح المئات. (١٥)

بحلول ربيع العام ١٩٥٦ كان بن غوريون قد قرر حسم الأمر مع مصر. فوضع خطة التعاون مع تابعيه موشي دايان رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيلي، وشمعون بيريز مدير وزارة الدفاع، لإنزال هزيمة بالجيش المصري والحط من هيبة ناصر. وكل ما كانت إسرائيل تحتاجه هو دولة عظمى تمدها بالسلاح وتحميها من التدخل السوفياتي، كانت الولايات المتحدة خارج الموضوع بسبب رفضها المتكرر لاقتراح إسرائيل بعقد معاهدة دفاع مشترك، وكذلك بريطانيا التي هددت بقصف إسرائيل بسبب هجماتها على الأردن! ولكن إسرائيل قد وجدت حليفاً لها فرنسا التي كانت في حرب ضد القومية العربية في الجزائر - والتي كانت تشارك إسرائيل أفكارها الاشتراكية.

حضّر بن غوريون للحرب ولكن ناصراً كانت لديه مواجهة أخرى. ففي ٢٣ يوليو (تموز)، أي بعد أسابيع من بدء المفاوضات على عقد معاهدة مع بريطانيا وفرنسا بشأن مستقبل قناة السويس! أعلن من جانب واحد تأميم القناة. وإثر تهديدات ناصر لحلفاء بريطانيا في الأردن والعراق، ولفرنسا في الجزائر، أصبح الأوربيون على استعداد لاستخدام القوة لإجبار عبد الناصر على التخلي عن القناة (يتقيأها)، ولكن كما أن إسرائيل كانت بحاجة إلى دعم قوة عظمى، كذلك كانت فرنسا وبريطانيا بحاجة إلى دعم قوة فائقة، هي الولايات المتحدة.

لم تكن إدارة إيزنهاور (Eisenhower) مفتونة بعبد الناصر آخذة في الاعتبار سياساته غير المنحازة وصفقات السلاح التي يعقدها مع الاتحاد السوفياتي. وكانت آخر خيبة أمل لأمريكا هي مبادرة ثانية باسم غاما (Gamma) عرضت على مصر يجري بموجبها إعلان مصر إنهاء حالة الحرب والعداء مقابل تنازل إسرائيل عن قطعة أرض. إذ أرسل الرئيس الأمريكي إيزنهاور مبعوثه الشخصي، روبرت ب.

أندرسون (Robert B.Anderson) التكساسي وزير المالية الأسبق كوسيط لبحث هذه الصفقة. فوجد بن غوريون غير قابل لتقديم أي تنازل بشأن الأرض، ولكنه كان راغباً في لقاء عبد الناصر في أي مكان وأي زمان. أما عبد الناصر فقد أوضح المهمة منذ البداية بتساؤله: لم المجازفة بالتباحث مع إسرائيل من أجل حلف بغداد؟ وبالتالي فقد رفض استقبال أندرسون. وبعد ذلك وافق أيزنهاور على مشروع آخر بالغ السرية اسمه أوميغ (Omega) يهدف إلى الإطاحة بجمال عبد الناصر بأية وسيلة سوى الاغتيال(١٦).

كانت واشنطن تكره عبد الناصر، في واقع الأمر، ولكنها مع ذلك كانت تكره الاستعمار الأوربي أكثر من كرهها لعبد الناصر. ولهذا، برغم كون الولايات المتحدة أحد الأطراف الموقّعة على التصريح الثلاثي مع بريطانيا وفرنسا الذي مفاده: منع أية محاولة لتغيير الحدود في الشرق الأوسط بالقوة، فإنها لم توافق على اعتبار تأميم عبد الناصر للقناة محاولة لتغيير الحدود بالقوة، ولم تقر استخدام القوة ضد مصر. ثم توالت سلسلة من المبادرات الدولية تهدف كلها إلى حل الأزمة، ولكنها جميعاً تفتقر إلى الأسنان (آلية التنفيذ). وأخيراً بلغ غضب فرنسا حده فلجأت إلى حلفائها وأقنعت بريطانيا بأن تحذو حذوها. وهكذا وقع في ٢٤ سبتمبر (أيلول) ممثلون عن ثلاث دول بروتوكولاً بالغ السرية في سيفريه (sevres) إحدى ضواحي باريس. وبموجب هذا البرتوكول تتظاهر إسرائيل بالهجوم على قناة السويس، وبذلك تعطي مسوّغاً للأوربيين لاحتلال القناة بذريعة حمايتها. وبالمقابل يتلقى الإسرائيليون دعماً جوياً وبحرياً لدى قيام قواتها بتدمير الجيش المصري في سيناء وفتح مضائق تيران. (١٧)

نشبت الحرب العربية الإسرائيلية الثانية المعروفة في إسرائيل باسم «حملة سيناء»، وفي البلدان العربية باسم «العدوان الثلاثي» في فجر التاسع والعشرين من أكتوبر (تشرين أول). نزلت قوات إسرائيل المظلية في ممر متلا «Mitla pass» الواقع على بعد ٢٤ ميلاً شرقي القنال. وبموجب الذريعة المتفق عليها سلفاً، أعلنت بريطانيا وفرنسا إنذارهما النهائي الذي رفضته مصر كما هو متوقع. وفي الوقت نفسه اخترقت تشكيلات دايان المدرعة الخطوط المصرية في وسط سيناء وجنوبها وتابعت سيرها

عبر قطاع غزة المحتل من قبل مصر. فأصيب الجنرال محمد عبد الحكيم عامر رئيس هيئة أركان الجيش المصري بالهلع فأمر جنوده بالتراجع. كان انتصار إسرائيل سريعاً -أسرع مما توقعت بريطانيا وفرنسا. كانت الأرمادا الأنكلو- فرنسية تتهادى في البحر في حين كان القادة الفرنسيون والبريطانيون يترنحون تحت الضغط العالمي. فلم يبدأ الغزو حتى الرابع من نوفمبر (تشرين ثاني) في الوقت الذي ادعى فيه المصريون أنهم لم يطردوا من سيناء بل تراجعوا تكتيكياً للدفاع عن بيوتهم.

تعد عملية مسكيتير (Musketeer) (هذا هو اسمها الرمزي) عملية عسكرية ناجحة تماماً. إذ تشتت الجيش المصري، ثمّ إعادة احتلال ثلاثة أرباع القناة. ومع ذلك كانت النتائج السياسية كارثية. إذ اختفت الحرب الباردة والفروقات الثقافية لدى توحد المجتمع الدولي في إدانة الهجوم. وثبطت عزيمة بريطانيا وفرنسا تحت ضغط التهديد الأمريكي بفرض عقوبات، وتهديد الصواريخ السوفياتية. فانسحبت قواتهما تجر أذيال الخزي، وأنزلت أعلامهما من الشرق الأوسط نهائياً وإلى الأبد.

وبالمقابل لم يكن الإسرائيليون الذين كانوا يسيطرون على كل سيناء ومضائق تيران في عجلة من أمرهم. إذ على الرغم من الضغط الهائل الأمريكي والروسي الذي تعرضت له، فقد كانت مازالت تتمتع بتعاطف دولي بوصفها ضحية المقاطعة والإرهاب، إضافة إلى ما كان يلقاه بن غوريون من دعم قوي داخل إسرائيل. وفي حين كان يخضع للمطالب الداعية إلى سحب قواته من سيناء، فإنه ربط قبوله بضرورة حصوله على ضمانات بحرية العبور من مضائق تيران وحماية إسرائيل من الغارات الحدودية. وصرح قائلاً: إن الهدنة التي مارست مصر في ظلها العدوان على إسرائيل قد ماتت.

تبع ذلك دبلوماسية كسر الأعناق لمدة شهور، حاول خلالها أبا إيبان (Abba Ehan) السفير الإسرائيلي المفوض إلى الولايات المتحدة والأمم المتحدة جاهداً لتأمين مصالح بلاده غير منقوصة.

بيد أن دور الإنقاذ لم يلق على عاتق إيبان، بل على كاهل وزير خارجية كندا ليستر مايك بيرسون (Lester Mike Pearson)، وبوصفه موثوقاً من قبل جميع الأطراف ذات الصلة -العرب والإسرائيليين والأوربيين- ثقة لا يتطرق إليها الشك طرح بيرسون تصوراً لإيجاد قوات طوارئ متعددة الجنسيات تابعة للأمم المتحدة (UNEF) لمراقبة الانسحاب البريطاني-الفرنسي من مصر، ثم طبق ذلك المفهوم على القوات الإسرائيلية في سيناء، وتتضمن هذه الفكرة نشر قوات من مجموعة من الدول على طول الحدود المصرية- الإسرائيلية، في قطاع غزة وشرم الشيخ المطلة على مضائق تيران. قاوم ناصر الفكرة كما هو متوقع، إذ اعتبرها تقييداً لسيادة مصر ومكافأة لإسرائيل على عدوانها.

وكذلك بن غوريون اعترض عليها لأنها تخوِّل ناصر أن يطرد هذه القوة الدولية متى رأى ذلك مناسباً.

لقد تم تخطي العقبة هذه باتفاقين صادقين صافيي النية - أحدهما بين وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس (John Foster Dalles) وغوالد مائير (Golda Meir) وزيرة خارجية إسرائيل. ووعد همر شولد (Hammarskjold) عبد الناصر أن يكون لمصر الحق في إخراج قوات الطوارئ ولكن بعد دراسة الجميعة العمومية للأمم المتحدة فيما إذا كانت قوات حفظ السلام قد أنجزت مهمتها. ووعد دالاس أن الولايات المتحدة سوف تعتبر أية محاولة مصرية لإعادة فرض الحصار على مضائق تيران عملاً حربيا يحق لإسرائيل أن ترد عليه دفاعاً عن النفس بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وفي مثل هذه الحالة تعهدت مائير بإحاطة الولايات المتحدة علما بنواياها. انضمت بريطانيا وفرنسا كذلك إلى هذا الاتفاق بالإضافة إلى كندا وعدد من الدول الغربية - مثل السويد وبلجيكا وإيطاليا ونيوزيلاندا. حدثت أخطاء بسيطة عندما عادت القوات المصرية إلى غزة، وعندما كرر دالاس دعمه للهدنة، ولكن بحلول ١١ مارس من العام ١٩٥٧ كانت قوات الطوارئ الدولية قد أخذت مواقعها، وآخر جندي إسرائيلي قد غادر سيناء. (١٨)

إنجازاً مذهلاً بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا. وتبنى النظام الجديد اشتراكية متطرفة، مؤدية للخط السوفياتي، وجسدت الجمهورية العربية المتحدة (وهو الاسم الذي أطلق على الوحدة هذه) المثل العربية الراديكالية. وأنشأ عبد الناصر في السنة التالية كياناً في غزة، وهو نوع من الحكومة في المنفى التي عبرت عن التزامها بالقضية الفلسطينية رغم عدم تمتعها بسلطة حقيقية. وتوج إنجازه في العام ١٩٦٠، بفضل حصوله على تمويل من الاتحاد السوفياتي لمشروع بناء السد العالي في أسوان الذي يعد «أكبر مأثرة هندسية في الشرق الأوسط منذ بناء الإهرامات» عمت الفرحة والنشوة الشارع العربي. وبفضل ربط نصفي العرب الشرقي والغربي في إطار دولة واحدة، الأمر الذي أدى إلى تضييق الخناق على إسرائيل، عادت الآمال والتوقعات بتحرير فلسطين عسكريا. ولم يستطع عبد الناصر تجاهل ذلك كله، خصوصاً عندما تعرضت سوريا في العام ١٩٦٠إلى التهديد بالحرب. (٢٢)

بدأ التهديد بمحاولة إسرائيل فلاحة المنطقة المنزوعة السلاح على طول الحدود الشمالية. أطلق السوريون النار على الجرارات الإسرائيلية وردت مدفعية الجيش الإسرائيلي بقصف بعض المواقع في مرتفعات الجولان المطلة على إسرائيل. ولدى ارتفاع حرارة الاحتكاك دخل الاتحاد السوفياتي وأخبر عبد الناصر بأن إسرائيل تخطط لغزو سوريا وحدد تاريخاً هو ٢٢ فبراير (شباط) عيد الجمهورية العربية المتحدة.

كان عبد الناصر قد تلقى تحذيرات مماثلة من قبل ولكنه اختار هذا الوقت ليتحرك نظراً لارتفاع حدة الرأي العام العربي. فاندفع لواءان مصريان بما فيهما اللواء المدرع الرابع إلى سيناء. وأحيطت قوات الطوارئ الدولية علماً بوجوب مغادرة شبه جزيرة سيناء في غضون ٢٤ ساعة خشية وقوع أعمال عدائية.

كان عرضاً للعضلات رائعاً لإسرائيل، التي لم يكن لها سوى ثلاثين دبابة في الجنوب دون حماية. فاستنفر الجيش بجنون في حين صرح الدبلوماسيون الإسرائيليون ليطمئنوا الحكومات الأجنبية بعدم وجود أية حشود حربية على أي من سوريا أو مصر. وظل التوتر عالياً حتى مطلع مارس (آذار)، عندما انسحبت

القوات المصرية من سيناء بهدوء كما دخلتها(٢٣). سببت هذه الفترة التي أطلق عليها جيش الدفاع الإسرائيلي اسم (ريتاما) على اسم النبات الصحراوي العَطِر روتيم (rotem بالعبرية) جرحاً لإسرائيل، وحققت ما هو ليس بأقل من نصر لعبد الناصر. ولسوف تظل ذكراها حية في الأذهان ودروسها واضحة، في العام ١٩٦٧.

بيد أن سد أسوان و«ريتاما» كانتا مجرد استثناء في حكاية الجمهورية العربية المتحدة التي تمنى عبد الناصر أنها لم تكن. إذ إن الجمهورية العربية المتحدة أخذت تتفكك في ظل الحكومة المشتركة في سوريا بإدارة المشير عبد الحكيم عامر العاجزة كعجز جنرالاته في حرب ١٩٥٦. فقد انتشر الفساد والظلم والبطش، وهيمنت الدولة بقوة على الاقتصاد السوري المنفتح تقليديا وشاط الضباط السوريون غضباً إذ وجدوا أنفسهم خارج أطر السلطة. فقامت ثلة من هؤلاء الضباط في سبتمبر (أيلول) من العام ١٩٦١، ومن بينهم صلاح جديد وحافظ الأسد بانقلاب ناجح وأعلنوا انفصال سورية عن الوحدة (٢٤). وحُمِّل عامر وهيئته في طائرة ورحلوا إلى القاهرة على وجه السرعة. ولم يبق لهم من ذكرى الجمهورية العربية المتحدة سوى اسمها الذي احتفظت به مصر من جانب واحد.

كانت مرحلة الانفصال بداية الانحدار في حياة عبد الناصر.

فقد اعتلت صحته -وصار يعاني من مرض نقص السكر في تلك السنة- ودخل في علاقات عاصفة مع خروتشيف الذي كان يرى أن مصر لم تكن راديكالية بما فيه الكفاية. وأخذ اقتصاد البلد ينهار. إن البقعة الوحيدة المضيئة في قلب هذه الفترة الحالكة كانت بفضل تحسن العلاقات المصرية مع الولايات المتحدة بإدارة جون ف. كينّدي (John F.Kennedy) الجديدة.

وخلافاً لأيزنهاور الصدامي، كان كيندي يرى أن الجزرة يمكن أن تكون فاعلة ومؤثرة أكثر من العصا في احتواء النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط وإخراج عبد الناصرمن المشكلة.

وباستخدام «السلاح غير المنظور» كما أسماه تشيستر باولز (Chester Baules)، أحد كبار المسؤولين في إدارة كيندي قدمت واشنطن لعبد الناصر شحنات نصف سنوية من القمح والسلع الأساسية الأخرى كحافز له «ليترك الميكرفون للجرار» حققت هذه السياسة نجاحاً حيناً من الزمن، إذ بدا وكأن عبد الناصر انسحب من فوضى السياسات العربية -العربية وأخذ يركز أكثر على الشؤون المحلية (المصرية) فانفتح باب الحوار بين مصر وأمريكا على الرغم من أن دعم مصر لحركات التحرر الوطني المقاتلة وخصوصاً في أفريقيا، وتزعمها لحركة عدم الانحياز كان يؤرقها، ودليل هذا التحول ظهر في المراسلات بين الرئيسين، إذ كتب عبد الناصر إلى كيندي يقول: «ستظل هناك خلافات فيما بيننا»، ورد عليه كيندي مقتبساً كلامه قائلاً: «ولكن التفاهم المتبادل سيبقي هذه الخلافات ضمن حدود لا تتجاوزها». كما ظهر هذا التحسن في العلاقات بالمساعدات التي قدمتها أمريكا لمصر التي كانت تطعم ٤٠٪ من الشعب المصري في العام ١٩٦٢ . (٢٥)

إلاّ أن أحداثاً أخرى وقعت في العام ١٩٦٢ قد بذرت بذور الكارثة في ذاك الانفراج في العلاقات الأمريكية -المصرية، وبذور المصائب في حياة عبد الناصر عموما. تلك هي مشكلة اليمن. إذ أطيح بالبدر، إمام ذلك البلد البعيد في أقصى جنوب الجزيرة العربية، على يد مجموعة من الضباط الأحرار بقيادة الجنرال عبد الله السلال (Abdullah.al-Sallal). فهرب البدر إلى الرياض سعيا وراء الحصول على دعم السعودية لتمرد مضاد. أما السلاّل فقد اتجه إلى القاهرة.

وجد السلال عبد الناصر مازال يترنح بسبب تفكك الجمهورية العربية المتحدة، وبسبب انهيار سياساته الاقتصادية، إضافة إلى خشيته من تحول ولاء بعض ضباط جيشه الكبار. فكان تقديم الدعم التكتيكي لقوات السلال، قد منح عبد الناصر أمراً واقعاً.

فقبل ذلك مقدراً أن اليمن مكان ملائماً لإشغال اهتمام جيشه ولإنزال هزيمة سهلة بمنافسه السعودي ولإحراج المستعمرة البريطانية في اليمن وإرباكها. أما

خروتشيف الذي كان تواقاً للانتقام من الإرباك الأخير الذي ألم به بسبب أزمة الصواريخ الكوبية، فقد بارك خطوة عبد الناصر هذه. (٢٦)

وهكذا بدأت ورطة عبثية عنيفة جداً بحيث يمكن أن تسمى حرب فيتنام الوشيكة «يمن أمريكا» (٢٧) بسهولة. إذ كان الأسرى يعدمون بصورة روتينية، والجثث تُشوه، وقرى بأكملها تمسح من الوجود. وكانت القوات المصرية تقصف المخازن الملكية في المملكة العربية السعودية، ولأول مرّة في التاريخ يستخدم جيش عربي الغاز السام. بالإضافة إلى أن حرب اليمن قد أشعلت الحرب الباردة بين التقدميين والرجعيين العرب. فقد عكرت صفو شهر العسل القصير في العلاقات المصرية - الأمريكية. فقد رأى كينيدي في تدخل عبد الناصر في اليمن بدايات لتسلل الاتحاد السوفياتي إلى جنوب شبه الجزيرة العربية. لذلك أصر من خلال وسيطه الخاص إلسوورث بانكر (Elsworth Banker) على ضرورة التوصل إلى اتفاق تتوقف السعودية بموجبه عن دعم الإمام البدر وتسحب مصر جنودها من اليمن. ولكن في حين وافقت الرياض، فإن القاهرة قد نكثت بالعهد وأرسلت مزيداً من القوات إلى اليمن. فحذّر كينيدي في التاسع عشر من أكتوبر (تشرين أول)، أي قبل أكثر من شهر من اغتياله قائلاً: «إن انهيار فك الارتباط.. لن يؤدي إلاّ إلى وضع تتباعد فيه الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة بدلاً من أن تتقاربا». (٢٨)

لم يدرك أحد أن الوضع العربي قد أصبح أكثر انعزالية وكآبة - ومع هذا فقد كان كذلك. إذ سقط النظام الحاكم في العراق الذي لم تكن علاقته مع مصر ودية، في فبراير ١٩٦٣ سقوطاً عنيفاً حيث قتل قادة الحكم رميا بالرصاص على يد راديكاليي حزب البعث. ولم يسفر الحديث عن وحدة ثلاثية بين مصر وسوريا والعراق سوى عن مسودة دستور وحسب.

وحدث حمام دم عندما طرد المتعاطفون مع عبد الناصر من الجيش العراقي، ومن ثم من الجيش السوري إثر إجهاض محاولة انقلاب في يوليو (تموز).

قتل المئات وأعدموا، ووقعوا ضحية نيران متقاطعة.

فما كان لمثل هذه الأحداث، والعلاقات الخارجية المصرية السقيمة جداً والعلاقات العربية – العربية عموماً إلا أن تدخل السرور على قلوب الإسرائيليين. إذ أصبح خطر نشوب حرب عربية إسرائيلية ثالثة بعيداً بسبب تفكك الجمهورية العربية المتحدة وغرق جيش عبد الناصر في مستنقع اليمن. فضلاً عن التطمينات التي جاءت من الولايات المتحدة بفضل التحسن الذي طرأ على العلاقات بينها وبين إسرائيل بمبادرة من كيندي. وخلافاً للجمهوريين الذين لم يكونوا يتمتعون بدعم غالبية اليهود الأمريكيين، والذين لم يكونوا يتعاطفون كثيراً مع إسرائيل، فإن الرئيس الديمقراطي الجديد كان يدين بنجاحه الحرج في الانتخابات الرئاسية إلى الأصوات اليهودية وكان يتكلم عن الدولة اليهودية بحرارة. فقد قال لوزيرة الخارجية مائير: «للولايات المتحدة علاقة خاصة بإسرائيل يمكن مقارنتها بعلاقتها مع بريطانيا. وأعتقد أنه في حال تعرض إسرائيل إلى غزو فإن الولايات المتحدة ستسارع إلى دعمها». وقد تجسد هذا الالتزام ببيع إسرائيل صفقة من الأسلحة تقدر ثمنها بـ ٧٥ مليون دولار، الدفعة الثالثة منها مخصصة لصواريخ هوك أرض – جو. (٢٩)

ومع ذلك لم تخل العلاقات الإسرائيلية – الأمريكية من احتكاكات. فلم تكن إدارة كيندي أقل معارضة من إدارة إيزنهاور لسياسة الانتقام الإسرائيلية، ومحاولاتها لتحويل نهر الأردن ومعارضتها لعودة اللاجئين الفلسطينين. وأكثر ما كان يقلق كيندي الملتزم بعدم السماح للأسلحة النووية بالانتشار هو برنامج إسرائيل النووي، إذ كان يخشى أن يحفز إنتاج إسرائيل لمواد انشطارية العرب على تركيب صواريخ سوفياتية في مناطقهم، أو حتى توجيه ضربة استباقية إلى إسرائيل. فقد تذرع عبد الناصر بقدرة إسرائيل العسكرية المفترضة ليشرع بصناعة صواريخه مستعيناً بعلماء ألمان ونازيين سابقين بدلاً من الروس. ولم تنجح وعود إسرائيل المتكررة بأنه لن يرشح ما يضر أو يسيء في ديمونة، وأنها لن تكون الدولة الأولى في إدخال الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط، في تهدئة مخاوف الرئيس الأمريكي. فقد

الإسرائيلي كان محافظاً في أساسه يتشبث بأفكار جديدة، مادية بدائية، وبفكرة ضرورة إنتاج جيل جدّي من القادة يتمتعون بثقة كبيرة.

لقد أرسيت قواعد هذه الثقة في جيش الدفاع الإسرائيلي، ذلك الجيش الذي ترعرع ونما فأصبح يضم ٢٥ لواءً و١٧٥ طائرة وحوالي /١٠٠٠/ مدرعة مزودة بمدافع محسنة من عيار ١٠٥ مم، بحيث أصبح يشكل تهديداً باختراق الخطوط العربية وتأمين نصر مبكر قبل أن تدمر المدن الإسرائيلية المعرضة للقصف. وطُوِّر سلاح الجو الإسرائيلي بحيث أصبح قادراً على توجيه ضربة موجعة إلى مصر إدراكاً من قادة إسرائيل أن تحييد مصر يجعل بقية الجيوش العربية تنهار. بيد أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يكن مجرد قوة مقاتلة، بل كان مؤسسة تقوم على مفاهيم التطوعية، وعلى مفهوم قيادة الضباط لجنودهم على أساس «صيحة اتبعوني!!» وعلى قواعد المسؤولية الاجتماعية.

كان الإسرائيليون جميعاً رجالاً ونساء يعدون جنوداً دائمين في إجازات مؤقتة، وذلك بفضل نظام الجندية المتبع عندهم إذ تخدم المراة ثمانية عشر شهراً خدمة نظامية ويخدم الرجل سنتين/ وتتبع هذه الخدمة بدورات احتياط سنوية إلى أن يبلغ المرء الثانية والخمسين من العمر. ولا يؤدي الجنود التحية ولا يقومون بتدريبات المشي إلا ما ندر -إذ يركز جيش الدفاع الإسرائيلي على السرعة، والارتجال «المبادرة الذاتية»، والمرونة في القيادة. وكان الافتراض الشائع أنه لا خيار أمام إسرائيل سوى خوض حرب حياة أو موت أخرى، حرب يفوق فيها العدو جيش الدفاع الاسرئيلي عدداً رغم نموه بصورة هائلة(٢٢).

اجتمعت السياسة والقوة العسكرية في يونيو (حزيران) ١٩٦٣ عندما شعر الإسرائيليون باطمئنان كاف ليتركوا بن غوريون، أب البلاد، يقدم استقالته. أما السبب المباشر لاستقالة بن غوريون فهو الفضيحة الدائمة التي أحاطت بعملية التخريب في مصر والتساؤل عمن أمر بها. أهو أحد الوزراء أم عناصر في المؤسسة الأمنية؟ أصر بن غوريون على تشكيل هيئة قانونية مستقلة للتحقيق في الاتهامات في مواجهة معارضة اللجنة الحكومية الداخلية التي كانت قد برّأت الوزير. وربط

وجوده في تشكيل الهيئة القانونية. فخسر. لأن أكثرية زملائه في حزب الماباي (حزب العمال الإسرائيلي) «Mapai» وقفوا إلى جانب اللجنة الوزارية، فخرج بن غوريون احتجاجاً على ذلك.

لم يكن مثل هذا التغير للحارس -إذ كان السبب الحقيقي وراء هذا الجدل هو رغبة محدثي التحرس في السياسة مثل غولدا مائير وإيغال آلون في أن يتقدموا ممكنا في زمن مليء بالمخاطر حقا، وما كانت الدولة لتعهد بقيادتها لرجل يحل محل مؤسسها، هو ذلك التكنوقراطي العجوز ليفي إشكول (Levi Eshkol).

لا تشابه بين الاثنين، بن غوريون وليفي إشكول. إذ كان إشكول بلا لون سياسي ولا خبرة له، فقد كان وزيراً للزراعة وللمالية يعرف الكثير عن الزراعة والمال ولكنه لا يعرف إلا القليل في شؤون الدولة. لم يتوقع السياسيون بقاءه في الحكم طويلاً إلا قلة منهم، مفترضين أن بن غوريون لا بد وأنه عائد إلى الحكم يوماً ما. حتى إن إشكول نفسه وصف منصبه «كرئيس وزراء بالوكالة». ولكن عندما وصل الأمر إلى علاقات إسرائيل مع العالم العربي تطابق منظورهما تماماً. إذ كان إشكول، أيضاً، يعتقد أن العرب يريدون الحرب وأن إسرائيل كانت ذات مرّة لا تقهر عسكرياً ومعرضة للموت. مُشبّهاً إياها بشمشون الجبار (بالعبرية اليديشية Shimshon dor nebech dikker)، وبالانكليزية (Samson the nerd). وهكذا، في غضون شهر واحد في العام ١٩٦٣، قال رئيس الوزراء الجديد لوحدة محمولة جواً من جيش الدفاع الإسرائيلي: «ربما يأتي الوقت الذي يحدد فيه المظليون حدود إسرائيل. إذ ينبغي ألاّ ينخدع جيراننا بأن ضعفنا يمنعنا من إراقة الدم». ويستدير إلى الكلية الحربية محذراً: «الخطر الذي تواجهه هو الدمار الكامل».

وصف البيئة وتحليلها

من المفارقات أن تكون إسرائيل مدينة بنجاحها إلى حدّ ما إلى العرب، إلى عدائهم الذي غلّف مجتمعا كان خياليا لولا هذا العداء، ومع ذلك وحّد هذا العداء نفسه العرب بطرق عدّة كان زعماؤهم تواقين إلى تسخيرها. فالوحدة المقترحة بين

مصر وسوريا والعراق عرضت على أنها تحالف ضد إسرائيل لأنه، برغم تقاربهم أيدولوجيا، لا توجد قضية أخرى يتفقون عليها.

فقد صورت مصر تدخلها في اليمن على أنه «خطوة على طريق التخلص من الصهيونية»، في حين أن حلف الطائف (Taif) السعودي -الأردني الذي عارض ذلك التدخل، وصف نفسه بأنه «جبهة ضد العدوان اليهودي». (٢٤)

بيد أن فلسطين كانت تياراً يجْذِبُ في اتجاهات متعارضة يوحّد العرب ويفرّقهم حسبما يوجهه قادة العالم العربي ضد منافسيهم.

فمع ولادة الوحدة الثلاثية ميتة، على سبيل المثال، وجّه دكتاتور سوريا أمين الحافظ إلى عبد الناصر تهمة التعاون مع إسرائيل وبيع فلسطين لقاء إردبات قليلة من القمح. ورد عبد الناصر باتهام سورية «بطعن مصر في الظهر» ومحاولة جر العرب إلى الحرب قبل أن يتوحدوا. كما أن وصفي التل رئيس وزراء الأردن الدائم انضم إلى أعدائه الرئيسيين في دمشق وشجب بقوة عدم شن عبد الناصر حرباً على إسرائيل، وشجب رغبته في الاختباء وراء قوات الطوارئ الدولية. (٣٥) إن استمرار مشكلة مليون لاجئ فلسطيني، إضافة إلى السياسة الخارجية والدفاعية الإسرائيلية الثابتة يؤكد أن الصراع سوف يستمر ليكون عامل توحيد وتفريق في آن واحد.

فبحلول مطلع العام ١٩٦٤ بدا التيار وكأنه يسير في اتجاه التعاون بعيداً عن الانقسامات. والذريعة كانت خطط إسرائيل في شق قناة لجر مياه الجليل إلى النقب. إذ كان العرب يخشون أن إرواء النقب سيجعلها صالحة لاستيعاب ثلاثة ملايين مهاجر يهودي وتعزيز قبضة إسرائيل على فلسطين. سوف يفيد السوريون من ذلك الخوف في منافستهم لعبد الناصر. فدعوا إلى «حرب شعبية» لتدمير المخطط الصهيوني، أسوة بحرب التحرير الجزائرية المظفرة التي تدين الكثير إلى دعم عبد الناصر.

وألقت السعودية والأردن ثقلهما إلى جانب دمشق فوجدت مصر، أكبر دولة عربية وأقواها، نفسها معزولة فجأة، إذ بدت وكأنها غير راغبة في التصدي لإسرائيل.

لم يكن عبد الناصر راغباً في أن تحبط مناوراته، فرد بفكرة درامية إذ دعا إلى عقد قمة عربية، وأعلن أن «فلسطين فوق كل الاختلافات في الرأي، ومن أجل فلسطين، نحن على استعداد للّقاء مع كل الذين نختلف معهم». (٣٦)

كان يكمن وراء هذا الكلام المنمق عزوف عبد الناصر عن فتح سوريا المبادرة في الشأن الفلسطيني، وحاجته إلى تفادي خوض حرب لا تستطيع مصر الصمود فيها أو تحقيق النصر، وقد أوضح ذلك في كلمة ألقاها في الاسكندرية قبل انعقاد القمة بأسبوع، قائلاً:

«لا نستطيع استخدام القوة اليوم لأن الظروف لا تسمح لنا بذلك! فاصبروا معنا، فمعركة فلسطين يمكن أن تستمر، ومعركة الأردن تعد جزءاً من معركة فلسطين، إنني أقودكم إلى كارثة إذا ادعيت بأنني سأحارب في وقت أنا عاجز عن خوض الحرب، لن أقود بلدي إلى كارثة ولن أقامر بمصيرها». (٣٧)

كانت مسألة تلافي الحرب وحفظ ماء الوجه يعدان حافزاً كافياً لعقد القمة، ومع ذلك كان لدى عبد الناصر حافز أقوى: الا وهو الحاجة إلى الخروج من اليمن، إذا ازداد عدد القوات في اليمن من فرقة صغيرة في العام ١٩٦٢ إلى أكثر من ٥٠،٠٠٠، الأمر الذي أرهق الاقتصاد الذي كان على حافة الهاوية، ربما ازداد عامر وزمرته ثراء بفضل الحرب، ولكنها كلفت البلاد حوالي ٩،٢ مليار دولار –أي حوالي ٥ ملايين دولار لكل قرية مصرية– بالإضافة إلى آلاف الاصابات البشرية، لكي ينسحب من اليمن، كان لا بد لعبد الناصر من التفاوض مع السعودية وغيرها من الرجعيين الممقوتين لديه، وهو ثمن أصبح عبد الناصر في النهاية راغباً في دفعه.

انعقد في القاهرة في ١٤ يناير (كانون ثاني) من العام ١٩٦٤، أكبر تجمع لزعماء العرب منذ حرب فلسطين. بذل عبد الناصر جهده خلال الأيام الثلاثة التالية لتحقيق أهدافه في السيطرة على الثوريين المنحلة شكيمتهم، واختيار زملاء جدد له من الملوك المحافظين.

ولكن ذلك كلفه كثيراً. إذ وافقت القمة على خطة عربية كلفتها ١٧,٥ مليون دولار لتحويل مجرى الأردن عند منبعيه -نهري بانياس (Banias) والحاصباني (Hatzbani- وبذلك تنخفض كمية المياه التي تصل إسرائيل انخفاضاً حاداً. ومع افتراض أن إسرائيل لن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى بلدها يجف، فقد أوجد المؤتمر قيادة عربية موحدة (UAC) لحماية مشروع تحويل نهري بانياس والحاصباني وللاستعداد لمواجهة أي عدوان إسرائيلي. وكُلِفتْ القيادة العربية الموحّدة التي خصص لها ميزانية قدرها ٣٤٥ مليون دولار خلال عشر سنوات بتوحيد السلاح العربي، وتقديم عون عسكري للأردن ولبنان وسورية. ووضعت خطط لدعم الدفاع اللبناني بقوات سورية وأردنية وعراقية، ووضع سلاح الجو العراقي المتقدم تحت تصرف القيادة العربية الموحدة. ووضعت شروط لخوض الحرب: السرية والوحدة والاستعداد العسكري الكامل. (٣٨)

وكانت القمة قد حظيت لأول مرّة في تاريخ الشعوب العربية بموافقة جميع القادة العرب، الأمر الذي عُدَّ نصراً لعبد الناصر. ووضعت القيادة العربية الموحّدة تحت سلطة مصرية مباشرة بقيادة الجنرال علي علي عامر، ورئاسة أركانها بإمرة الجنرال عبد المنعم رياض. وأخذت مصر على عاتقها زمام المبادرة في الكفاح المسلح ضد إسرائيل، ولكن ساعة الحسم قد أرجئت لمدة سنتين ونصف حتى تستكمل القيادة العربية الموحدة استعدادها وتصبح جاهزة للعمل في العام ١٩٦٧. وبفضل حشد العرب جميعاً تحت سيطرة عبد الناصر الحازمة تجسد شعاره القائل «وحدة العمل» وأصبح حقيقة واقعة. (٣٩)

مازال الوضع العربي المعقّد يزداد سوءاً. فقد زادت العلاقات المصرية -الأمريكية توتراً وسوءاً باقتراب نهاية ولاية إدارة الرئيس كيندي، وقطعت نهائيا في عهد خلفه الرئيس لندن بينس جونسون (Lindon Baines Johnson). وأضيفت الهجمات على قاعدة ويلوس (Wheelus) الأمريكية الاستراتيجية في ليبيا، إلى سياسات مصر الثابتة تجاه الحرب في فيتنام والكونغو، وإسرائيل واليمن والملوك الموالين للمغرب- والتي كانت كلها تختلف عن سياسات واشنطن.

أما الشعرة التي قصمت ظهر البعير فقد كانت في نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٦٤، في ما أسماه سفير الولايات المتحدة إلى القاهرة، لوشياس باتل (Lucius But-tle) «سلسلة صغيرة من الرُّعب». أولها قام مشاغبون بمهاجمة السفارة الأمريكية في العاصمة، وأحرقوا مكتبتها. ثم أسقطت القوات المصرية بالصدفة طائرة يمتلكها جون ميكوم (John Mecom)، رجل الأعمال التكساسي والصديق الشخصي للرئيس. وعندما اقترح باتل أن يعتدل سلوك عبد الناصر لتأمين استمرار حصوله على القمح الأمريكي، أعلن الزعيم المصري قائلاً: «يقول السفير الأمريكي إنّ سلوكنا غير مقبول. إننا نقول لهم من لم يعجبه سلوكنا فليشرب من البحر.. ولسوف نقطع ألسنة الذين يسيئون القول فينا.. ولن نقبل سلوك قطاع الطرق رعاة البقر». (٤٥)

وهكذا انتهت المساعدات الأمريكية لمصر بحلول العام ١٩٦٥.

كانت الولايات المتحدة تعمل جاهدة لنسف جهود القاهرة لإعادة جدولة ديونها العالمية، والحصول على رصيد في صندوق النقد الدولي. فقد عُلِّقت شحنات القمح الأمريكي التي كانت تشكل ٦٠٪ من الخبز المصري. واقتنع عبد الناصر أن جونسون يسعى لاغتياله. بيد أن جزءاً كبيراً من خسارة مصر قد عوضتها المساعدات التي قدمها خروتشيف أثناء زيارته إلى القاهرة في مايو (أيار) من العام ١٩٦٤، والتي بدونها ما كان بالإمكان علاج علل البلاد المزمنة: إذ ازداد عدد سكان مصر من ٢٩,٢ مليون نسمة بنسبة ٢,٥٪سنويا، إضافة إلى الفقر (دخل الفرد سنويا حوالي ١٤٠ دولاراً، وتضخم بنسبة ٤٠٪) والسّقم (إذ كان معدل عمر الرجال ٣٥سنة)،